موضوع للمناقشة

موسيقى الفاصلة

القلم عبد العزيز سيد الأهل

•

ارأيت كيف يهوي كل جسد في غور الوادي ويتحطم حين لا يكون منحدره إلى الوادي سفحاً مائلا خفيف الميل منتظم الانحدار ، يربط القدم عن الزلل ، ويحفظ الميزان عن الانحراف ، ويصون الجسم من الفجاءة وشر التحطيم ؟

كل فرد منا يدرك بالفطرة والجبلة أنه لن يمسك نفسه على الحياة أو على السلامة فيها إذا جاوز حارك الطريق ، ولم يستمسك ، وكان على مهوى سحيق مستعجل ، فاذا ودّ النزول من علو طريقه إلى اسفله وجب ان يتخير المنحدر وينظم الخطوات ويمسك البدن ، حتى إذا بلغ حضيض التل بلغه سليماً ذا عافية ، هادىء دقات القلب مرتاحاً من هيجة الدم واضطراب الأعصاب .

ونحن في كل أعمالنا — بلا استثناء — نبدأ فنجدّ فنسرع ، ثم نجنّ في السرعة ، فاذا أوشكنا ان نبلغ النهاية اخذنا نهدىء من السرعة ونمكّن للبطء حتى تتصل الحركة بالسكون من دون طفرة او ضد فاجىء يقتل ويدمر ، كما تفعل فجاءة السكتة القلبية فتخمد العرق النابض وتجمد الدم الدافق .

★

والطائر اذا سقط على الفرع او هبط على الارض خفف من خفق جناحيه ، وبسط رجليه لمستعرض الهواء وحط على ريشات ذيله لئلا يتأذى ، وما أظن الطائر إلا أحس ثقله حين كان دانياً من الارض وهو طفل صغير لم يتعلم ، ثم عرف كيف يملو فيخف ، وكيف يهبط فلا يتحطم ، حين نبت على جسده زغبه ، واكتسى جناحاه بريش القوادم وريش الخوافي .

وحتى الآلة التي لا تعقل إذا أمسكت عنها القوة عوامل الدفع ودوافع الحركة لم تقف فجأة ، بل ظلت تدور وتهدأ ، وتهدأ وتسترخي ، ثم تسكن فتنام ، لأن طبيعة الانتقال إن لم تسر على قاعدة التبطيء والتليين صارت الى فجأة بغيضة . وإذا كان ذلك قانون الأشياء التي تدرك بالفطرة والتي لا تدرك ولا تعقل فأولى بالشيء الذي يعقل ان يتخذ سبيل النقلة الذي ينجي وقانونها الذي لا يهلك ولا يضر ولا يسيء .

وكل شيء من حولنا يسير على السنّة ، وينطاع للطبع ، ويرجو السلامة — يهدأ في مسيره إذا دنا من الغاية ، ويتمطى بصلبه إذا أوفى على النهاية ، ويميل بعد سرعة التدحرج الى الركون والاستقرار ليقرّ به القرار .

وكل شيء يدعونا الى ان نقلده — نحن بني الانسان — وكان من حقنا ان نقتدر عليه فيقلدنا ، وان نوحي بعقولنا وهزات مشاعرنا الى ما حولنا من الاشياء ان تلتزم السنة وتنطاع للطبع وترجو السلامة ، ولكنا نسينا — ونحن ذوو مشاعر عقلاء — لأننا نحاول بعقولنا ان نخترم العادة ونحطم الطبع ، ولم تنسَ الأشياء التي من حولنا طبعها وعادتها فبقيت على السلامة ، اما نحن فنسير على حارك الطريق لنسقط ، ونقع على غير ذيل فنتأذى ، ونطلب الطفرة فنتحطم ، ومالنا في هبوط الطير أو بطء الآلة او هدأة السيل من هداية نهتدي بها نتطلق إذا تعلمناها ونسلم إذا قلدناها .

★

وقد أعدت هذه الحمى كثيراً من كتابنا ، او الذين يقال انهم كتاب ، فتراهم لا يعرفون كيف يبدأون ، فاذا بدأوا لم يعرفوا كيف يدأبون ، فاذا اوشكوا على نهاية الفاصلة أمسكوا فجأة فكادت تنقلب بهم الجملة ، واوشكت ان تنكفىء على ما بعدها من الكلمات ، وتندلق على ما وراءها من السطور ، كما يندلق الماء من إناء اصطدم وكأس ارتطمت فذهب ماؤها فجأة وضاع من غير حسبان .

وليست موسيقى الفاصلة بالصعبة على البصير ذي الطبع الصافي ، او المستبصر الذي يتفطن وينقاد ، اذ الفاصلة في نهايتها تحتاج الى بطء وهدأة حتى تصل إلى الاسماع كما يصل اليها القرار الموسيقي في آخر النغمة إذا اراد الضارب ان يقطع النغم ويدفع يده عن زخم الاوتار .

وما اظن المهتدي الى الخير في حاجة الى ان يقرأ في كتب البلاغة نهاية الفاصلة ليعلم انها الخرزة تفصل بين الخرزتين في

النظام، وانها كانت في آيات التنزيل بمنزلة القافية في البيت تدل على ان البيت قد انتهى الى بدء جديد — ما اظن المهتدي إلى الخير في حاجة الى كل ذلك. وفي كلام اهل السليقة والمجيدين من الكتاب والخطباء فواصل ينتهون عندها، ومن قراءة امثال هؤلاء يطمئن المهتدي الى طبعه ان كان يجوده، او على صنعته إن كانت تحسن في يده، أما أولئك الذين يضربون في الامور دون ان يروا انهم في حاجة لأنهم اغنياء، فلهم مضلة الطريق وهم في عشواء لا يبصرون.

ولغتنا العربية — مذ كانت — في ترف من موسيقى الفاصلة، فلم تستغن عنها ولم تبطر، بل ظلت معنيّة بنغمتها في اقوال الخطباء الذين ملكوا ازمّة القيادة، والكتاب الذين انتهت اليهم السيادة، ولم ينس واحد من هؤلاء ان يكون دائماً في نهاية كل فقرة كالضارب على العود اذا قطع هدأ واذا وصل سال، وكان دائماً في المقطع الاخير يصيب.

★

وأنا لا اقصد بهذا الكلام كاتباً بعينه ولا خطيباً بذاته، ولكني ارى السامع اللبيب والقارىء الفطن يذهب وراء الكلام المنغوم حتى يتقصاه، وأراه يذهب عن غيره فلا يتم قراءته أو لا يطرب له، وأنا اشفق على الكاتب والخطيب ألا يكون لهما سامع يطرب ويستحسن، وقارىء يتقصى ويتأثر، وما أحسن ما سمعته من قارىء يقول لبصير من الكتاب: انك لا تكتب المقال بحروف من الحديد والحجر وانما تكتبه بفيض دافق من ساحر الانغام مصوَّر في كلام.

وأنا لا أقصد بهذا الكلام ان أجور على المعاني لأحقق للفظ العناية وأنصُرَ على صاحبه، فمال هذه الموسيقى والعدوان؟

إن هي الا قوة للفظ والمعنى، وبها يشتد ساعدهما ويقوى أثرهما، وما يكتب الكاتب الا وهو يرجو أن يُقرأ له ويصغى اليه، فاذا لم تكن هذه رغيبته فأولى له ان ينطوي على نفسه أو يغني وحده فريداً دون أن يطلب الآذان وينشد اسماع القلوب.

★

وهل أسر الناس من قبلنا ببعض الخطباء، وفتنوا ببعض الادباء، إلا لأنهم سمعوا — فيما سمعوا — بمقاطع الاصوات والسطور نغماً يهدأ بعد علوّ ويبطىء بعد سرعة ويطمئن بعد عنف ليوحي بالتطريب ويشير إلى حسن الختام؟

وهل عنيت البلاغة بموسيقى الفاصلة إلا لأنها أدركت ما فيها من تحبيب لو جادت وتنفير لو ساءت، فجعل أهل البلاغة ينبهون اليها ويصنعون لها قوالب وقواعد لعلها تنظم فيها كلام الناس فلا يقلق كتاب ولا يضطرب خطاب؟

وطالما تركتُ من يدي كل مقروء ونفرت من كل مسموع حين أرى الجمل تتكفأ وتتساقط من الحوارك وتنقطع حياتها فجأة، وما أظن لائماً يلومني إذا مشيتُ في أرض غير خبَار أو ذات احجار، لئلا تغوص قدمي فلا تخلع، ولئلا أظل بين العقاب والمهاوي لا أجيد التسلق ولا أحسن الانحدار.

وحسبي ان اقرأ او أسمع لمن عُنوا بموسيقى العربية، ولم يستغنوا، ولم تبطر معيشتهم، وما أنا بمتجنّ، فهو حقاً جو الطائر الذي ينزل على الريش، والآلة التي تبطىء قبل أن تستريح، والانسان الذي يكره الفجاءة. وليس هناك ولا هنا من بد في طلب الراحة بعد الحركة ورجاء السكون بعد طول التعب والاستقرار إلى قرار بعد طول المشوار ووعثاء الطريق.

عبد العزيز سيد الاهل

سلسلة رواية وادب وتاريخ ومغامرات

		قروش لبنانية
١ – ايلويز وابيلار	لويس الحاج	١٠٠
٢ – باغانيني ساحر النساء	رئيف خوري	١٠٠
٣ – بودلير في حياته الغرامية	الياس ابو شبكة	١٠٠
٤ – ميسالين الامبراطورة الوثنية	لويس الحاج	١٠٠
٥ – ليدي هاملتن سفيرة الحب	باسيل دقاق	٢٠٠
٦ – ديك الجن الحب المفترس	رئيف خوري	١٥٠
٧ – كاترين الروسية في احضان الحب	باسيل دقاق	١٥٠
٨ – نابوليون وزوجته البولونية	باسيل دقاق	٢٠٠
٩ – اللورد بيرون عاشق نفسه	انطون غطاس كرم	١٥٠
١٠ – بولين بورغيز الشهوة الجامحة	باسيل دقاق	١٧٥
١١ – المرأة في حياة ادغاربو	عبد اللطيف شرارة	١٥٠
١٢ – فاغنر والمرأة	جورج جرداق	٣٥٠
١٣ – المركيزة دي بومبادور	خليل يونس	١٠٠
١٤ – مضاجع نابوليون الثالث (الجزء ١)	باسيل دقاق	١٥٠
١٥ – مضاجع نابوليون الثالث (الجزء ٢)	باسيل دقاق	١٥٠

من منشورات دار المكشوف